ثنائية الذات والاخر في شعر يوسف الخال

The Duality of the Self and the other in the Poetry of Youssef Al-Khal

د. هاذة عباس علي
أستاذ مساعد
جامعة السليمانية – كلية اللغات

Dr. Hazha Abbas Ali
Assistant Professor
University of Sulaimani-College of Languages

hazha.ali@univsul.edu.iq

تاريخ الاستلام ٢٠٢٢/٩/٢٩
تاريخ القبول ٢٠٢٢/١١/١

الكلمات المفتاحية: ثنائية الذات والآخر، يوسف الخال، الايجابي والسلبي

Keywords: The duality of self and other, Youssef Al-Khal, positive and negative

الملخص

ركزت الدراسة على ثنائية الذات والآخر في شعر يوسف الخال، هذه الثنائية التي تفرض نفسها في قصائده فنراها واضحة الملامح والهيئة، بدأً بأحوال الذات بنوعيها المتفائلة والمتشائمة ومروراً بأنماط الآخر الايجابي والسلبي ووصولاً الى العلاقة التي تربط الطرفين ببعض، فلكل طرف سلطة وقوة على الطرف الآخر، فالتأثير والتأثر واضح بينهما، الا إنه هناك غلبة لطرف على الآخر في مجموعة من القصائد وإخترنا هذه القصائد موضوعاً للدراسة. وتبين قوة التأثير والتأثر بين الطرفين من خلال علاقة الاتصال أو الانفصال، فكلما كان التأثير أكبر يكون التأثر أكبر ويحقق الاتصال غايته في شد الطرفين الى بعض، وكلما كان التأثير ضعيفاً يكون التأثر أضعف ومن ثم يفشل الاتصال في تحقيق غايته لتقريب الذات من الآخر فيحل محله الانفصال حلولاً طاغياً وملموساً.

Abstract

The study focused on the duality of the self and the other in Youssef Al-Khal's poetry, this duality that imposes itself in his poems, so we see it is clear in features and appearance, starting with the conditions of the self with its optimistic and pessimistic types, passing through the patterns of the other positive and negative, and ending with the relationship that binds the two parties to each other. Each party has power and strength over the other. The influence and affection is clear between them, but there is a predominance of one party over the other in a group of poems and these poems has been chosen as a subject for this study. It shows the strength of influence and affection between the two parties through the connection or separation relationship. The greater the influence, the greater the affection, and thus the communication achieves its goal in tightening the two parties to each other. The weaker the influence, the weaker the influence, and thus communication fails to achieve its goal of bringing the self-closer to the other, so separation is replaced by overwhelming and tangible solutions.

مدخل

اولا: مفهوم الذات والاخر والعلاقة بينهما

شكل حضور الذات في الشعر العربي ظاهرة أدبية إستدعت اهتمام النقاد والدارسين، فهي ظاهرة لا تختص بعصر دون آخر، وانما نراها في المجال الأدبي على إختلاف العصور.

وبغض النظر عن توظيف الذات في الشعر في أزمنة مختلفة وتجارب مختلفة للمبدع، تظل لهذا التوظيف دلالات تكاد تكون متشابهة فهي الالتفاف الى الذات المبدعة التي تستدعي دراسة سلوك الفرد ومعرفة الطاقة التي تكمن وراء تفاعلاته.

فالذات من خلال وجودها في هذا العالم تسعى جاهدة الى بلورة هذا الوجود وتفسيره عبر موقف يصدر عنها، ومن ثم يتحول الموقف والذات الى شيء واحد، بيد أن المهم الإشارة الى أن الذوات الأنسانية تتفاوت في طريقة الكشف عن مواقفها المختلفة. فالذات الشاعرة تكشف عن موقفها بطريقة جمالية من خلال التجربة الشعرية، والذات الفلسفية تكشف عن موقفها الفلسفي بصورة مجردة.

أما ما يقابل الذات فيتجلى في الآخر الذي يمثل قسيم الذات الأبدي، فهو طرف غير الذات وهناك تلازم بينهما يكاد يشبه تلازم الزمان بالمكان.

((إن وجود (الآخر) يشكل ضرورة يتحقق بها وجود (الذات)، إذ لا يمكن أن يكون هناك (أنا) بدون (أنت)، فالموجود البشري حتى في أعمق جوانب وجوده يفيض على ماحوله، وهو يتجاوز حدود الوضع الفردي ولا يكون مفهوما الا داخل كل اجتماعي اوسع هو (الوجود مع الآخرين)، فالموجود الآخر هو موجود في العالم بالطريقة نفسها التي توجد بها (الانا) في العالم بوصفهم مراكز للاهتمام منها يبنى العالم، فهم فاعلون يشكلون العالم من هنا فصيغة (أنا–أنت) هي الصيغة الاصلية للوجود في العالم كما يقول مارتن بوبر من هذه الصيغة تشتق الأنا ذاتها بمفردها وتشتق الأنت ذاتها بمفردها كذلك))[1].

إذن يمكن القول ((إن الآخر حتمي للذات كما هي حتمية له فقطب (الذات/الأنا) لا يستطيع أن يعيش إلا في علاقة بقطب (الآخر/الغير)، صحيح أن المرء يولد بمفرده ويموت بمفرده ولكنه لايحيا إلا مع الآخرين وبالآخرين وللآخرين، إن الشعور الفردي لا ينطوي على أي انفصال مطلق عن عالم (الغير) الذي هو من مقومات الوجود الانساني بصفة عامة، وكما انه ليس ثمة (ذات) بدون (العالم) فانه ليس ثمة (ذات) بدون (الغير/الآخر) سواء كان (الغير) هو (الخصم) الذي أصطرع معه وأتمرد عليه وأسخر منه، أم كان هو (الصديق) الذي أتعاطف معه وأنجذب نحوه وأبادله حبا بحب، فانني في كلتا الحالتين لا استطيع أن أعيش

(١) ينظر: الوجودية، م.س، ١٤٨ – ١٥٥.

بدونه، ولا أملك سوى أن أحدد وجودي بأزائه، وسواء قلنا مع سارتر (إن الجحيم هو الآخر/الغير) أم قلنا مع جيته (انه ليس ثمة عقاب أقسى على المرء من أن يعيش في الجنة بمفرده) فإن من المؤكد أن الوجود بدون الآخرين–إن أمكن تحققه–إنما هو ضرب من المرض العقلي أو الانتحار الميتافيزيقي)) [١].

إذن كما يقول ادونيس: ((لاذات بلا آخر ولا آخر بلا ذات، ولا ذات بلا تأثر وتأثير، والتأثير هنا نوع من الشرارة تسطع عند الآخر، وتوجه الذات الى مزيد من معرفة نفسها، مزيد من أكتشاف مافي اعماقها من الضوء الكامن)) [٢].

والشعر الذي يعد من أكثر الفنون ارتباطا بالذات وتعبيرا عنها بقي على مدار مراحله المختلفة مرتبطا بالفضاء المجمعي منذ العصر الجاهلي، حيث كان الشعر صوت القبيلة وفي العصر الحديث يتحول إلى صوت الايدولوجيا أو الوطن أو العقيدة الدينية.

فلم تعرف الذات إستقلالها ولم تمتلك مغامرة البحث عن ذاتها خارج إطار هذا الوعي وارتهاناته الفكرية أو الدينية أو السياسية[٣].

ونراه يحدد الأسس التي ينبغي أن يقوم عليها الشعر بتسعة، وهي: "التعبير عن الحياة استمداد التعابير منها، تطوير الإيقاع، وحدة التجربة محورية الانسان، وعي التراث العربي، فهم التراث الأوروبي، الإفادة من الشعر العالمي، والامتزاج بروح الشعب"[٤].

تظهر لنا من خلال الآراء السابقة أن الأنا هي مركز الهوية الواعية، في حين أن الذات هي الشخصية الكلية بجوانبها الشعورية واللاشعورية كافة، وتحتوي على الأنا التي هي دائرة صغرى في الدائرة الكبرى (الذات)، فالذات كل ومركز في آن واحد تتحدد في ضوء توقها الدائم الى الآخر.

ثانيا: الشاعر يوسف الخال ومفهومه للحداثة

يعد الشاعر يوسف الخال المولود في سوريا ١٩١٦ من أوائل الشعراء الذين كتبوا الشعر الحديث، حيث ثار على الشعر القديم بأساليبه وأشكاله وأوزانه، وكان يرى أنه على الشاعر أن يبتكر أشكاله الشعرية الخاصة وخصوصا في عصر تتغير فيه أنماط الحياة بشكل غير مسبوق يصل بالإنسان حد الذهول، حيث إنطلق بالشعر من صميم الحياة واكثر من الرموز

(١) مشكلة الانسان، د. زكريا ابراهيم، ١٦٠.

(٢) سياسة الشعر (دراسات في الشعرية العربية المعاصرة)، ٧١.

(٣) ينظر: الحداثة في الشعر، يوسف الخال، ١٧.

(٤) يوتوبيا المدينة المثقفة، خالدة سعيد، ٣٧ – ٣٨.

الاسطورية والفلكلورية والتأريخية، وقد كانت مجلة الشعر التي أنشأها راعية لمشروع الشعر الحداثي، كما كان له دور كبير في العمل على تجديد الثقافة في الأوساط العربية، ودعم القصيدة العربية الحديثة وخصوصا قصيدة النثر. فكان الخال يرى أنه على الشاعر أن يبدأ قصيدته من الفراغ وأن لا يعبر عن أفكار مسبقة ومحددة أو قالب شعري جاهز كما هو الحال في القصيدة التقليدية فكانت القصيدة من منظوره نوعاً من اللامعلوم والغيب فالشاعر بحسب هذا الرأي، "لا يرى في البداية سوى منارة تشع من بعيد، لكنه يجهل الطريق إليها، وبعد ذلك يظل يسير ويجرب، يصيب مرة ويخيب مرة"(١).

وفيما يتعلق بالحداثة فيرى يوسف الخال أن الحداثة في الشعر لا تعد مذهبا كغيره من المذاهب، بل هي حركة إبداع تماشي الحياة في تغييرها الدائم، ولا تكون وقفا على زمن دون آخر فحيثما طرأ تغيير على الحياة التي نحياها فتتبدل نظرتنا الى الأشياء، سارع الشعر الى التعبير عن ذلك بطرائق خارجية عن السلفي والمألوف، فالمضامين والأشكال تمشي جنبا الى جنب لا في الشعر وحده، بل في مختلف حقول النشاط الانساني ايضا، فالحداثة ليست زيا خارجيا يقتبسه الانسان، وإنما هي عقلية جديدة تتجاوز الظاهر إلى الباطن. وهي توغل في روح العصر وموقف جديد من قضايا الحياة. ومن ثم فالحداثة الشعرية ليست مجرد تحطيم لوحدة البيت أو تنويع القوافي، بل تعبير عن عقلية جديدة، تنظر الى الحياة بمنظار حديث فالشعر الحديث مفهوم جديد للشعر والحياة معا(٢).

(١) نظرية الشعر في كتابات الشعراء المعاصرين، عبدالله العشي، ١٨.

(٢) الحداثة في الشعر، يوسف الخال، ٩٣ – ٩٤.

المحور الأول

أحوال الذات

عند التمعن في شعر الشاعر يوسف الخال يظهر لنا نمطان من الذوات في قصائده وتتمثل في:

١. **الذات المتفائلة:** تتمثل الذات المتفائلة في شعر يوسف الخال وهي التي تتفاءل بالحاضر لبناء مستقبل واعد تعيش فيه كل أطياف المجتمع بصورة سوية دون وجود فروق اجتماعية أو سياسية أو دينية، ونرى أيضا في الذات المتفائلة نوعا من أنواع التمرد والتحدي والاصرار وعدم الاستسلام لأحوال راهنة أو مستقبلية من شأنها اضعاف الشعوب واضطهادها وسلب الحقوق والارادة منها، وتظهر لنا هذه الذات بوضوح في قصيدة هذه الأرض لي:

هذه الأرض لي وهذا الفضاء
ما تراني ملكت ما أشاء
ثروة، يانعمها، كم تفادى
وقضى في ادخارها الآباء
سمَروا كل مطرح بالضحايا
والضحايا على المدى أحياء
.....
هذه الأرض لي، لدى كل ظل
في حماها خميلة وسماء
حفنة من ترابها كانت الدنيا
وكان الهدى وكان الضياء
هذه الأرض لي، درجت عليها
وعليها سيدرج الأبناء
ما أنا، إن هجرتها، غير طيف
أنكرته، في وصفه، الأسماء
وسؤال ضاع الجواب عليه
مثلما ضاع في الدجى إيماء
رب يوم بها، على نكد العيش
نعيم أقل منه الرجاء
هذه الأرض لي، وكانت شراعاً
وستبقى، فما لحق فناء

ترد النور حيثما يورد النور
سخياً فتشرق الصحراء
وغداً شأنها يعود فتعطي
إنما الحر شأنه العطاء
فإذا كل فكرة قبس منها
وكل اختلاجة إيحاء
هذه الارض لي، ومن كان مثلي
هل له غيرها منى ودعاء؟
أنا منها وطالما هي مني
فلتكن ما أشاء لا ما يُشاء(١)

عند قراءة القصيدة تظهر لنا الذات المتفائلة التي تستند على أربعة عناصر رئيسة كما هو واضح في المربع الآتي:

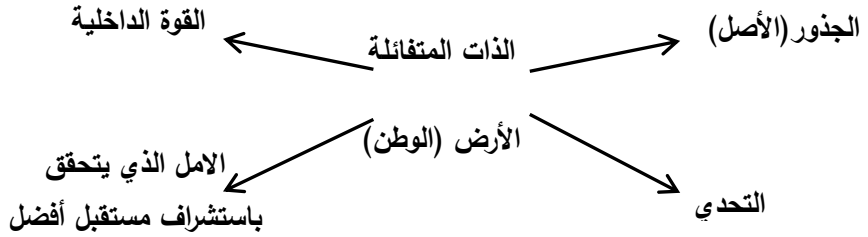

تشكل الذات المتفائلة مركز المربع وهي الأساس التي إنطلقت من الجذور وتحلّت بالقوة والتحدي ومن ثم أنتجت هذه العناصر الثلاثة بتآزرها املاً لبناء مستقبل أفضل على هذه الأرض.

بدأ الشاعر القصيدة بإسترجاع أمجاد الماضي الذي بناه الآباء بالكد والتعب، ففي المقطع الأول نرى إنصهار الذات في الذوات الأصلية التي شكلت جذور القضية وهي قضية الأرض، فلولا هذه الذوات التي قدمت الأرواح والتي ستبقى حية الى الأبد لما وصلت هذه الأرض بخيراتها وثرواتها ونعمها الى الشاعر.

(١) قصائد في الاربعين، هذه الأرض لي، يوسف الخال.

ومن ثم نرى إنفصال الذات المتفائلة عن الذوات الأخرى وذلك لبيان الإصرار والقوة والأحقية في امتلاك هذه الأرض وذلك في المقطع الثاني الذي يبين فيه الشاعر أن كل الدنيا لا تساوي حفنة من تراب أرض الوطن الذي كان فيه النور والهدى.

ومن ثم وفي المقاطع الأخرى من القصيدة نرى أن الذات المتفائلة تندمج بصورة شبه كلية بالعناصر الأخرى وذلك بثباتها على موقفها ومن خلال إستشراف مستقبل أفضل للأجيال القادمة.

فنرى نبرة التحدي عندما يقول الشاعر:

هذه الارض لي، درجت عليها

وعليها سيدرج الأبناء

إشارة الى أحقية الشاعر وأبنائه وأحفاده في امتلاك هذه الأرض دون غيرهم وكأنه يريد أن يُوعد على نحو غير مباشر من يُفكر في إمتلاكها أو تدميرها وخرابها.

وبعد ذلك وحتى نهاية القصيدة نلحظ الإشارات المستقبلية التي تريد الذات المتفائلة أن تُرسلها إلى الجميع وهي أن هذه الأرض هي أرض حق فلا تُفنى أبداً مهما طال الزمان وتغيرت الأحوال، وسيأتي يوم وتمنح العطاء والضياء للجميع.

وفي الشطر الأخير من القصيدة نرى ظهور الذات المتفائلة بقوة غير مسبوقة منذ بداية القصيدة وذلك لاسدال الستار عن الفصل الأخير من القصيدة وهي أن الذات المتفائلة (الشاعر) قطعة من الأرض والأرض قطعة منها اذن فلتكن هذه الأرض كما تشاء هي (الذات المتفائلة) لا كما يريدونها أن تكون.

٢. **الذات المتشائمة:** تظهر الذات المتشائمة في شعر يوسف الخال من خلال تعبير الذات عن إستسلامها لما يدور حولها من أحداث وعدم قدرتها ويأسها في تغيير واقع مفروض عليها فاضحت ذاتاً سلبية مشلولة لا تقوى على المواجهة وتدفن آمالها وأحلامها في التراب، ونرى هذه الذات بوضوح في قصيدة الدارة السوداء حيث يقول الشاعر:

دارتي السوداء ملأى بعظام

عافها نور النهار،

من يواريها الترابا؟

علها تبعث يوماً،

تدفع الصخرة عنها

آه كانت كائناً يملأ جفنيه الظلام

ابكماً كالجدث المغلق، مشلولا، كسيحاً

راح يستعطي على عرض الطريق

آه كانت كائناً لأكون فيه
عدماً يرقص في جفن الغريق
ليته ما كان يوماً
ليته ما كان يوماً هكذا
ليته ما كان، بل ظل بأحضان الرمال
ياصديقي، أنا لا أندب حالي
أنا لا أعرف حالي
العصافير بنت أعشاشها
حيثما حطت بها ريح الشمال
وأنا في هذه الدارة وحدي
جاثما كالهم، كاللعنة، كالخوف
على صدر الجبان
جاثما كالموت في البرهة في كل مكان
جاثما بين العظام
ليت من يجرؤ، لا أقوى
على طمر العظام
قبضتي كلت وأظفاري براها
الزحف من دار لدار
منذ ما سمرت في الحرف مصيري
من ما أطفأت الريح على الشط مناري
أتراني أهجر الدار وأمضي
يدفن الأموات موتاهم وأمضي؟
أين أمضي؟
أ الى المأتم في الغابة والميتُ إلهُ؟
أ الى العرس، وما
في العرس خمر ومسيح؟
أم تراني الزم الصمت ،ابقى
جاثماً بين عظام
عافها نور النهار
ملها عتم الليالي

والعصافير بنت أعشاشها

حيثما حطت بها ريح الشمال؟

آه لا أدري، ولكني أُصلي! (١)

نرى في هذه القصيدة المفارقة الوجودية التي يحس بها الشاعر، فهو من جهة يفتح عينيه على الوجود فيرى من حوله كل شيء يضج بالحركة والفاعلية لأنه حدد مساره ووجهته، في حين يظل هو قابعاً في ظلمات دارته عاجزاً مشلولاً يحس بالأغتراب والوحدة.

فهذه المفارقة تسيطر على القصيدة من البداية حتى النهاية وتحول كل أمل الى عتمة ولا أمل، على الرغم من محاولة الشاعر النهوض أحياناً لتصحيح المسار، الا إنه يخفق في كل مرة يحاول فيها ويرجع للبداية المظلمة التي تخيم على القصيدة على نحو واضح.

فنلحظ أن تشاؤم الذات وسلبيتها وإستسلامها تنعكس على أجواء التفاؤل في القصيدة بحيث تمحو ألفاظ اليأس–في القصيدة–ألفاظ الأمل التي يحاول الشاعر ابرازها بين حين وآخر ولكن دون جدوى.

(١) البئر المهجورة، ادارة السوداء، يوسف الخال، ١٩٩ – ٢٠٠.

من خلال المخطط التالي نجري إحصائية لبيان الفاظ الأمل واليأس في القصيدة.

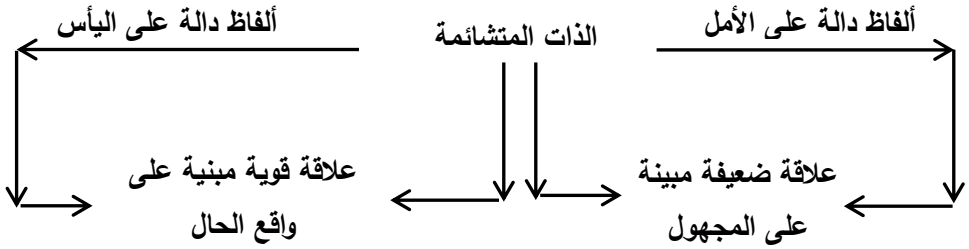

١. علها تبعث يوماً تدفع الصخرة عنها (الدلالة على الأمل بوساطة التمني ولكن هذا التمني ليس يقيناً وربما لا يتحقق). ٢. آه لا أدري ولكني أصلي هنا دلالة أمل ضعيفة وهي صلاة الشاعر من أجل تغيير الواقع الى الأفضل.	١. دارتي السوداء (الدلالة على اليأس بوساطة اللون الأسود) ٢. ملأى بعظام عافها نور النهار (الدلالة على اليأس وذلك بذكر عظام الموتى التي عفتها نور النهار) ٣. من يواريها الترابا (الدلالة على اليأس لعدم قدرة الشاعر حتى دفن الجثث في التراب) ثم نرى اليأس والعتمة تتوالى في قوله كان كائناً يملأ جفنيه الظلام أبكماً، مشلولاً، كسيحاً، يستعطي على الطريق، ليته ظل في الرمال، وأنا في هذه الدار وحدي، جاثماً كاللعنة، كالهم، كالخوف على صدر الجبان، لا أجرؤ عل طمر العظام. ثم بعد ذلك يأتي الأستسلام الكلي في قوله: مثل آبائي أبقى جاثماً بين عظام عافها نور النهار

هنا أعطى الشاعر شرعية ليأسه فأراد أن يقول ماذا أفعل أنا إذا كان أبائي وأجدادي لم يفعلوا شيئاً، الأفضل أن أسير مستسلماً ومكسور الجناح فالذات هنا عاجزة مشلولة تماماً لذا "تظل كل الخيارات الممكنة تؤدي الى الأفق المسدود: الهجرة، اللامبالاة، الصمت لذلك تحتمي الذات بما هو فوق الإنسان، (آه لاأدري ولكني أصلي)" [١].

(١) الأنساق الدلالية والايقاعية في البئر المهجورة، عبدالقادر الغزالي، ٨٨.

المحور الثاني

أنماط الآخر

١. **الآخر الايجابي:** يتمثل الاخر الايجابي في شعر يوسف الخال في الشخصية المساندة للشاعر والتي تؤيد الشاعر ضمناً حتى لو لم تدخل في حوار معه، وهي الشخصية التي يكن لها الشاعر حباً وحنيناً وأحتراماً فهي الأمل بالنسبة للشاعر التي بوجودها يستطيع التغلب على إنكساراته وهزائمه والمضي قدماً نحو المستقبل، ونرى نموذج الآخر الايجابي في قصيدة (العودة) ليوسف الخال حيث يقول:

غداً يعود سيدي
شراعه كغيمة بيضاء عند الشفق
أعرفه متى يلوح، كيف لا؟
خيوطه انا، أنا غزلتها–أصابعي،
صلبتها، غسلتها بادمعي
فكيف لا أعرفه
متى يلوح في البعيد آتيا
كغيمة في الأفق؟
غدا يعود سيدي
يعود، يا هلا!
.....
في عيونه – يعود لي
محملاً بالذهب،
بفضة تُصاغ للهياكل
الرخام ههنامجامراً،
للبطل الاله مقبضا لسيفه،
محملاً يعود سيدي
بالعاج صولجان ملك،
سريره،

بالجوهر الغريب خاتما له،

فرائداً لتاجه،

محملاً يعود سيدي

بالشوق لي

والأمل(١)

نلحظ في قصيدة العودة نوعاً من الإغتراب الذي يحس به الشاعر وذلك لأنه يشعر بالخيبة واليأس بسبب حالة الركود والجمود في وطنه فالغربة التي يحس بها الشاعر هي غربة نفسية لأنه داخل الوطن ويحس بهذا الإحساس، فضلاً عن عدم قدرته في تغيير الواقع الذي يعيش فيه، هنا تبدأ الحاجة لآخر ملهم إيجابي يمنح الشاعر قوة وأملاً، فنرى في القصيدة أن الآخر الحلم بالنسبة للشاعر هو آخر آت من خارج حدود الوطن يحمل بيديه ذهباً وفضة وأملاً وتفاؤلاً وكأن الشاعر ينتظره منذ زمن طويل كي يغير حاله فهو كما يقول يعرف خيوط الآخر (أنا غزلتها، حبكتها، غسلتها بأدمعي) هذا يدل على معرفة الشاعر بالآخر حق المعرفة في بداية القصيدة يعطي الشاعر إشارات للمتلقي بمعرفته للآخر المنتظر فهو دائماً يأتي للشاعر وينتشله من أحزانه ويأسه. ومن ثم يبدأ بوصفه ليبين للمتلقي مكانة هذا الآخر لديه وكيف يراه ويتأمل به خيراً، فضلاً عن أنه يعطي لهذا الآخر رتبةً أرفع منه وذلك لتسميته بسيدي في القصيدة ويصفه بأنه يعود بالعاج وصولجان الملك وبالجوهر الغريب كنايةً عن قوته وسلطته، وأخيراً يعود بأكثر شئ تحتاجه الذات (الشاعر) وهو الشوق والأمل.

إذن يشكل الآخر في هذه القصيدة عنصراً إيجابياً للشاعر فهو مصدر يستمد منه قوته للإستمرار في مقاومة الحياة.

٢. **الآخر السلبي:** إن الآخر السلبي في شعر يوسف الخال هو الآخر الذي يضفي على نفسية الشاعر مشاعر التشاؤم فيجعله يشعر بالألم والخوف جراء ما يجري من حوله من أحداث وينظر الى الأمور نظرة سوداوية وقد يكون هذا الآخر غير مرئي أو ضمني مثل القدر الذي يحس الشاعر بسطوته وجبروته وقد يكون شخصاً أو مجموعة أشخاص في هيئة إنسان ولكن في داخلهم وحش مفترس كما في قصيدة الحوار الأزلي، حين يقول:

وفي دربي

تماسيح وأشباه تماسيح

---

(١) البئر المهجورة، العودة، يوسف الخال، ٢٣٢ – ٢٣٦.

وبومٌ ملأ الجار وغربان
وغيم أسود ينذر بالطوفان، بالموت
على قارعة الدرب: عظام يبست
في الذل، في الوحدة، في الان
وهذا الزاحف العاري أإنسان
أإنسانٌ على شاكلة الله؟
أراه قُد من لحم الشياطين
.....
أراه حمل الأرض بكفيه
رماه في الدهاليز، بنى كوخا
من الفولاذ لا يدركه الموت
او السر، أراه أفرغ البحر
بعينيه، وأخفى رأسه في الرمل
خوفا من أعاديه: ترى هل يبصر
الأعمى أعاديه
عروق لم تعد
تنبض بالحب أو البغض
لسان نطق الا
بما كان له النطق
وعقل تاه في الدرب، ولا درب[١]

يبين الشاعر في القصيدة الآخر السلبي الذي لم تبق في قلبه رحمة ورأفة بالآخرين كناية عن شخص في هيئة انسان وفي داخله شيطان فيشبه هؤلاء بالتماسيح والغربان لأنهم لا يأتون لبلدانهم إلا بالخراب فهم يدمرون ويقتلون ويذبحون كالقتلة والشياطين ويعثون في الأرض فساداً وظلماً وقهراً فعروقهم لم تعد تنبض لا بالحب ولا بالبغض وأصبحت يابسة لا حرارة ولا دم فيها وأصبحوا تائهين ظالين لطريق الصواب.

(١) البئر المهجورة، الحوار الأزلي، يوسف الخال، ٢٢٠ – ٢٢٣.

ويتمثل الآخر السلبي أيضاً في المستقبل المجهول ليس للشاعر فحسب بل للكل، فعلاقة الشاعر بالآخر السلبي هي علاقة تنغيص ترقى الى الإلغاء وقد وردت في القصيدة الأوصاف مكتملة مثل غيم أسود، الطوفان، الموت، لحم الشياطين، العظام، فجاءت هذه المفردات في القصيدة كنوع من التأكيد الذي لايخفى ماتحته من إمتعاض الأنا من الآخر قلقاً وظلماً وتشاؤماً.

المحور الثالث

علاقة الذات بالآخر

١. **علاقة إتصال:** تتشكل علاقة الإتصال بين الذات والآخر في شعر يوسف الخال من خلال مشاركة الآخر لذات الشاعر في مناقشة الأمور وإبرازها ومن ثم إيجاد الحلول لها، فهذه المشاركة تكون اما مباشرة أو غير مباشرة وفي هذه العلاقة يكون أسلوب الشاعر نداءً أو طلباً من الآخر الذي يكون انساناً أو جماداً ولكن هذا الجماد يضفي عليه الشاعر روحاً ووجوداً إنسانياً من أجل صنع علاقة تواصل إيجابية معه لأن الشاعر يحس بأنه هناك نقاط مشتركة تجمعهما ويستطيعان فهم بعضهما البعض لوجود إتصال روحي بينهما، ونلحظ هذه العلاقة في قصيدة (الدعاء) ليوسف الخال حيث يقول:

أيها البحر، أيها الأمل البحر
ترفق بنا، ترفق، ترفق
ماأدرنا وجوهنا عنك إلا
بعدما مزق السياط ضحايانا
ولم ترحم العبيد الجراحا
وهي حبلى
.....
أيها البحر ياذراعاً مددناها
الى الله، ردنا لك، دعنا
نسترد الحياة من نور عينيك
ودعنا نعود، نرخي مع الريح
شراعاتنا، نروح ونغدو
حاملين السماء للأرض دمعاً
ودماءً جديدة
.....
الامن ينجَي
من يُعيد الرجاء يا بحرُ
دعوناك فأستجب لدعائنا[١]

(١) البئر المهجورة، الدعاء، يوسف الخال، ٢٢٧ – ٢٣٠.

تتمثل علاقة الإتصال في هذه القصيدة بين الشاعر والبحر فنراه يتحدث معها بأسلوب النداء ويطلب منها أن تترفق به وتساعده لأنه أصبح عاجزاً عن إيجاد الحلول لأزماته والعقبات التي تعكر حياته، ويخاطب البحر وكأنه انسان يبث له همومه ويجعل منها ذراعاً يمدها الى الله ليقبل دعائه فيرى فيها النور والحياة والأمل بعد الدماء والحسرة والألم، فالعلاقة بين الشاعر والبحر علاقة إتصال قوية جداً لانه في النهاية يطلب منه أن يلبي دعائه وأن يستجيب له، فالبحر هنا يمثل "الخلاصة الرمزية، والصورة المصغرة للعالم الذي يرسمه الخال مقابل الأرض الخراب (المفازة)" [1].

نلحظ أن الذات لاتبرز في هذا النص الشعري نسقاً منعزلاً عن الآخر، بل على العكس نرى إتصالاً واضحاً من خلال مناجاة للبحر، وذلك بألفاظ رقيقة وعذبة تشوبها العاطفة الدافئة في إنسيابية واضحة تجسد مراد الشاعر وتصور رغبات الأنا الحقيقية ومتخيلاتها في اللاوعي.

٢. **علاقة انفصال:** إن علاقة الانفصال في شعر يوسف الخال تظهر في القصائد التي فيها مسافة بُعد بين الاخر وذات الشاعر فلا نجد تواصلاً بينهما ويكون الصدَ بعض المرات من جانب الذات للآخر ومرات أخرى من جانب الآخر للذات كما هو واضح في قصيدة (الرحيل) حيث يقول الشاعر:

أقوم وأرحل عن صحرنايا
حزيناً ومالي رفيق
وفي صحر نايا ولدت، وفيها
على حائط ساجد في الطريق
شنقت إلهي
.....
وفي صحرنايا وأدت بناتي
وكنت الضريح
وفيها تشوه وجهي
.....
اقوم وأرحل عن صحرنايا
وأسلك دربي الى منتهاه
هناك أحضن وجه التراب
وأسمع صوت الاله

(١) الشعراء التموزيون (الأسطورة في الشعر المعاصر)، أسعد رزق، ٤٣.

وأبني من الريح مأوى يقيني[١]

في هذه القصيدة نرى انفصالاً واضحاً للذات عن الآخر لأن الآخر يعاني من جمود وعدم إدراك، لذا نراه يستشعر حساً مأساوياً درامياً حاداً، وفضلاً عما يشعر به من فشل وانهيار وتشويه، بسبب بُعد المسافة بينه وبين الآخر إلا أنه يُريد أن يعوض هذا البعد وهذه الخسارة بحل مؤقت يسترد فيه عزيمته وثباته وذلك بالإبتعاد عن الآخر بصورة شبه كلية والرحيل إلى مكان بعيد تبدأ فيه الذات (ذات الشاعر) حياة جديدة وتبني مأوى يقينها بدلاً من الشك والعُزلة التي تعيش فيها.فعلاقة الانفصال بين الذات والآخر في هذه القصيدة تنتج عنها حالة إيجابية لأن هذا الانفصال أو الابتعاد – من وجهة نظر الشاعر – هو الطريقة المثلى لحل أزماته وشكوكه والرجوع إلى الصواب واليقين مرة أخرى.

(١) الشعراء التموزيون (الأسطورة في الشعر المعاصر)، أسعد رزق، ٤٣.

نتائج البحث

من خلال الدراسة توصلنا الى النتائج الآتية:

١. إحتلت تجربة يوسف الخال حيزاً واسعاً في النقد العربي، ولقيت اهتماما مكثفاً ومتبايناً لدى كثير من النقاد والباحثين وذلك بحكم موقفه البارز في الحداثة الشعرية العربية وبوصفه أحد روادها الأوائل.

٢. شكّل الآخر – بأنماطه المختلفة – في شعر يوسف الخال أثراً واضحاً في نفسية الشاعر أولاً وفي شعره ثانياً، فالآخر في شعره لم يكن آخراً عادياً وإنما آخراً يمتلك سلطة وهيبة داخل النص وله مكانة بارزة في القصيدة سواء أكانت سلبية أو إيجابية.

٣. برزت مكانة الذات في شعر الشاعر من خلال مجموعة من المفاهيم التي تبلورت داخل القصائد، مثل التفاؤل، التشاؤم، الأمل، الحياة، البغض، الحب .....

فمن خلال هذه المفاهيم أتضحت شخصية الذات للمتلقي وما تحمله من أفكار وتطلعات الى جانب المعاناة والأزمات.

٤. إن العلاقة بين الذات والآخر في شعر الشاعر شكل في بعض الأحيان إتصالاً وفي أحيان أُخرى إنفصالاً وكانت هذه العلاقة مبنية على مدى استجابة الآخر للذات واحساسها بما تعانيه من مشاعر متناقضة واضطرابات دائمة وشكوك لا منتهية.

٥. إن الوعي الوجداني بالذات في قصائد يوسف الخال لايتم بطريقة ذاتية، كما لايتم بناؤها وتطويرها إلا من خلال الآخر بإدراكه والوعي به وتفسير دوره والصراع المستمر معه سواء أكان ذلك الآخر حقيقة أم خيالاً ومهما كان بعيداً أو قريباً.

٦. إن ثمة أواصر متجذرة تجمع بين الذات والآخر في قصائد يوسف الخال وتجلي حقيقة كل منهما، فالموازنة بينهما تصبح بمنزلة مرآة قد تكون أداة وسبيلاً للتعارف والتجاوز، فالآخر طريق الى الوعي بالذات وإيقاظ الذات لإدراك حقيقتها.

ثبت المصادر

- الأعمال الشعرية الكاملة، يوسف الخال، التعاونية اللبنانية للتأليف والنشر، بيروت، ١٩٧٣.
- الأنساق الدلالية والايقاعية في البئر المهجورة، عبدالقادر الغزالي، ١٩٩٧.
- الحداثة في الشعر، يوسف الخال، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٨.
- سياسة الشعر (دراسات في الشعرية العربية المعاصرة)، دار الآداب، بيروت، ط١، ١٩٨٥.
- الشعراء التموزيون (الاسطورة في الشعر المعاصر)، أسعد رزوق، دار الحمراء، بيروت، ١٩٩٠.
- مشكلة الانسان، د. زكريا ابراهيم، مكتبة مصر، القاهرة، د.ت.
- نظرية الشعر في كتابات الشعراء المعاصرين، عبدالله العشي، الجامعة الاردنية، الاردن، ١٩٨٨.
- الوجودية منزع إنساني، جان بول سارتر، دار التنوير للطباعة والنشر، مصر، ٢٠١٦.
- يوتوبيا المدينة المثقفة، خالدة سعيد، دار الساقي، الطبعة الاولى، ٢٠١٢.